

## تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن قيل المشركين { لولا } أي هلا { أنزل عليه آية من ربه } كقولهم { فليأتنا بآية كما أرسل الأولون } وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة وأن □ قادر على إجابة ما سألوا وفي الحديث إن □ أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً وأن يجري لهم ينبوعاً وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : [ بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة ] ولهذا قال لرسوله : { قل إن □ يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب } أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبههم إلى سؤالهم فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال : { وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون } وقال : { إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم } وقال : { ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء □ ولكن أكثرهم يجهلون } ولهذا قال : { قل إن □ يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب } أي ويهدي إليه من أناب إلى □ ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه { الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر □ } أي تطيب وتركن إلى جانب □ وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ولهذا قال : { ألا بذكر □ تطمئن القلوب } أي هو حقيق بذلك .

وقوله : { الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب } قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : فرح وقرّة عين وقال عكرمة : نعم ما لهم وقال الضحاك : غبطة لهم وقال إبراهيم النخعي : خير لهم وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل : طوبى لك أي أصبت خيراً وقال في رواية : طوبى لهم حسنى لهم { وحسن مآب } أي مرجع وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس { طوبى لهم } قال : هي أرض الجنة بالحشية وقال سعيد بن مسجوح : طوبى اسم الجنة بالهندية وكذا روى السدي عن عكرمة : طوبى لهم هي الجنة وبه قال مجاهد وقال العوفي عن ابن عباس : لما خلق □ الجنة وفرغ منها قال : { الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب } وذلك حين أعجبتهم .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن شهر بن حوشب قال : طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس ومغيث بن سليمان وأبي إسحاق السبيعي وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها

أن تمتد فامتدت إلى حيث يشاء ﷺ تبارك وتعالى وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من غسل وخمر وماء ولبن وقد قال عبد الله بن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعا [ طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمع أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله : طوبى لمن رآك وآمن بك قال : [ طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني ] قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : [ شجرة في الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ] وروى البخاري ومسلم جميعا عن إسحاق بن راهويه عن مغيرة المخزومي عن وهيب عن أبي حازم عن سهل بن سعد <sup>B</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [ إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ] قال : فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقى فقال : حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [ إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها ] . وفي صحيح البخاري من حديث يزيد بن زريع عن سعيد بن قتادة عن أنس <sup>B</sup> قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى : { وظل ممدود } قال : [ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ] وقال الإمام أحمد : حدثنا سريح حدثنا فليح عن هلال بن علي عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرأوا إن شئتم { وظل ممدود } ] أخرجاه في الصحيحين وفي لفظ لأحمد أيضا : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة : سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : [ إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو مائة سنة - هي شجرة الخلد ] وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر <sup>B</sup> قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر سدرة المنتهى فقال : [ يسير في ظل الغصن منها الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل في الفن منها مائة ركب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال ] رواه الترمذي .

وقال إسماعيل بن عياش عن سعيد بن يوسف عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام الأسود قال : سمعت أبا أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى فتفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء إن شاء أبيض وإن شاء أحمر وإن شاء أصفر وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن ] وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أشعث بن عبد الله عن

شهر بن حوشب عن أبي هريرة eB قال : طوبى شجرة في الجنة يقول ا□ لها : تفتقي لعبدي عما شاء ففتق له عن الخيل بسروجها ولجمها وعن الإبل بأزمتها وعما شاء من الكسوة .

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثرا غريبا عجيبا قال وهب C : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها زهرها رياط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها يا قوت وترابها كافور ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل وهي مجلس لأهل الجنة فبينما هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصايح حسنا ووبرها كخز المرعزي من لينه عليها رجال ألواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق فينخونها يقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال : فيركبونها فهي أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش نجبا من غير مهنة يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أذن راحلة منها أذن الاخرى ولا برك رحلة برك الأخرى حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام قال : فيقول تعالى عند ذلك : أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحيتي مرحبا بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري قال : فيقولون : ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا في السجود قدامك قال : فيقول ا□ : إنها ليست بدار نصب ولا عبادة ولكنها دار ملك ونعيم وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلوني ما شئتم فإن لكل رجل منكم أمنيته فيسألونه حتى أن أقصرهم أمنية ليقول : ربي تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيها من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا فيقول ا□ تعالى : لقد قصرت بك أمنيته ولقد سألت دون منزلتك هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيتهم ولم يخطر لهم على بال قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيتهم التي في أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة في كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراها أنها دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويتعلقان به ويقولان له : وا□ ما طننا أن ا□ يخلق مثلك ثم يأمر ا□ تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم



